١٠٦

أبناء مسلمان

صفية بنت حيي بن أخطب

الجزء الأول

اختارت الله ورسوله

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافي سيد
إشراف : أ. حمدي مصطفى

أفاقَتْ صفيَّةُ ذاتَ يومٍ من نَوْمِها مَذْعورةً فسألَتْها أُمُّها فى قلَقٍ :

ـ ما بكِ يا بُنَيَّتى ؟

فقالتْ :

ـ لقدْ رأيتُ اللَّيْلَةَ رؤْيا عَجيبةً حقًّا ، ولا أعرِفُ لها تفْسيرًا .

فقالتْ أُمُّها فى لَهْفةٍ :

ـ ومَا هى ؟

فقالتْ صفيَّةُ :

ـ رأيتُ الْقمرَ فى السَّماءِ فى لَيْلةِ تمَامِهِ وقدْ وقعَ فى حِجْرِى !

ولمْ تتمالَكِ الأُمُّ نفْسَها ، فهوَتْ بيدِها على وجْهِ ابْنَتِها ، ولطَمتْها لَطْمةً قويَّةً تركتْ فى وجْهِها أثرًا ، وهى تقولُ :

ـ إنكِ تتطَلَّعينَ إلى أنْ تكونِى عنْدَ مَلكِ الْعربِ يا خَبيثةُ .

ومرَّتِ الأيامُ ، وبَالُ صفيَّةَ مشْغولٌ بتفْسيرِ هذه الرُّؤْيا ، وزادَ مِنِ انْشغالِها ما فعلَتْهُ أُمُّها بها وما ذكَرَتْهُ عنْ مَلكِ الْعربِ ، فَمَنْ يكونُ ملكُ الْعربِ هذا ؟

وراحَتْ صفيَّةُ تُتابِعُ معَ قوْمِها مِنَ الْيهودِ أخبارَ النبىِّ ﷺ

وما يدْعو إليهِ منْ دِينٍ جَديدٍ ، وما وصلَ إليه منْ مَكانَةٍ عالِيَةٍ بيْنَ الناسِ جميعًا ، حتَّى أَصْبح فى نظَرِهمْ أَفْضَلَ منْ مُلوكِ الدُّنْيا .

وأَرْهفَتْ صفيَّةُ سَمْعَها جيِّدًا لِلْحوارِ الذى دارَ بيْنَ أَبيها وعَمِّها بعدَ زيارَتِهما لِمُحمَّدٍ فى اللَّيلِ ورؤْيَتِهما له ، حيثُ تساءَلَ الْعمُّ :

ـ أَأَنْتَ على يقينٍ أَنهُ النبىُّ الذى بشَّرَتْ به التَّوْرَاةُ ؟

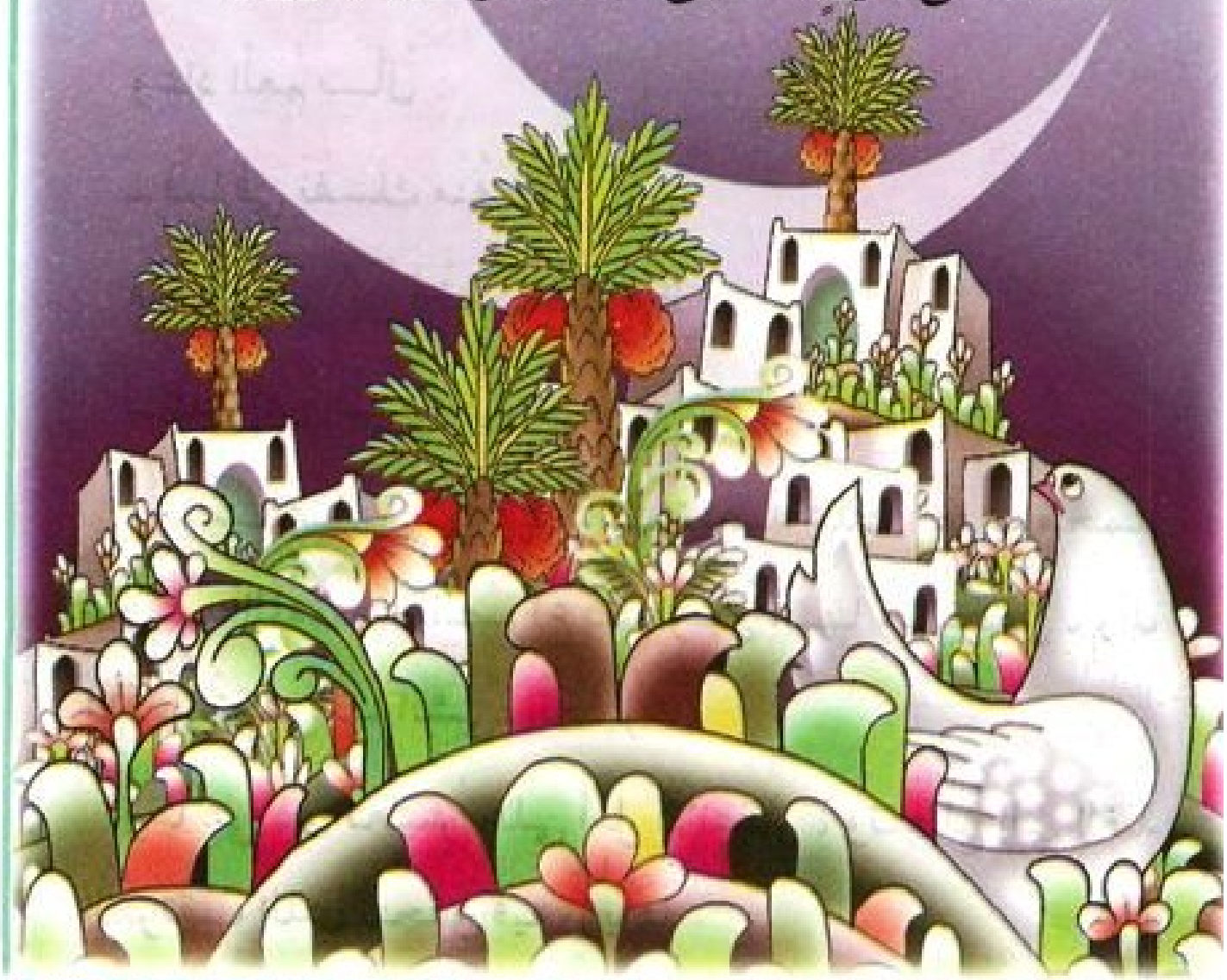

فأجابَ الأبُ :

ـ نعمْ واللَّهِ ، لقدْ عرفْتُهُ بعلاماتِ النُّبُوَّةِ ، كما يعْرِفُه كلُّ يهودىٍّ .

فقالَ العَمُّ فى دهْشة :

ـ أتعرِفُهُ وتثبتُهُ ؟

فأجابَ :

ـ نعم .

وعادَ الْعمُّ يسألُ :

ـ فما فى نفْسِك منْهُ ؟

فأجابهُ حُيَىُّ بنُ أخْطبَ فى غَيْظٍ :

ـ عداوَتُه واللَّه ما حييتُ !

وعلمتْ صفيةُ أن أُمَّها كانتْ تقصدُ بملكِ الْعربِ محمدَ ابنَ عبدِ اللَّهِ ، وأنَّ الصِّراعَ بينهُ وبينَ أبيها سيشْتعِلُ ، وأنَّ الأقْدارَ تُخفى لها الشَّىْءَ الْكثيرَ ..

وها هى ذى تعيشُ على أملِ الانْتظارِ ، وتتطلَّعُ إلى الْغدِ الْمُرْتقَبِ الذى تتحقَّقُ فيه رؤْياها .

ومرَّت الأيامُ مُسرِعةً ، وبدأَ الصِّراعُ يشتدُّ بينَ محمدٍ ﷺ وبينَ المشركينَ ، وانحازَ اليهودُ إلى جانبِ المشركينَ ، برغمِ عُهُودِهِمْ معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ألا يتحالَفُوا ضِدَّهُ أوْ يتآمَروا عليهِ .

وبَعْدَ خِيانةِ اليهودِ وتآمُرِهِمْ معَ المشركينَ فى غزوةِ الخَنْدَقِ ، كانَ لا بُدَّ منْ وَقْفةٍ حاسمةٍ معَ هذه النُّفوسِ

الشُّرَيرةِ والْخائنةِ ، فأمرَ الرسولُ ﷺ أصْحابَه بالتَّوَجُّهِ إلى خيْبرَ .

وسارَ الرسولُ ﷺ وأصْحابُهُ إلى خيْبرَ فى أواخِرِ شهْرِ الْمحرَّمِ للسنة السَّابعةِ للْهِجْرةِ ، وكانَ معهُ ﷺ فى هذه الْغَزْوةِ أَلْفٌ وأَرْبَعُمائةِ مُقاتِلٍ ، فلما اقْتربَ الرسولُ ﷺ منْ هذه الْقَرْيَةِ ، رفعَ يدَيْهِ إلى السماءِ ودعا ربَّهُ قائلاً :

ـ اللهمَّ ربَّ السَّمواتِ وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأَرَضينَ وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرياحِ وما أَذْرَيْنَ ، فإنا نسْأَلُكَ خيْرَ هذه الْقَريةِ وخيرَ أَهْلِها وخيرَ ما فيها ، ونَعُوذُ بكَ منْ شرِّها وشرِّ أَهْلِها وشرِّ ما فيها .

ثم قالَ لأَصْحابِه :

ـ أَقْدِموا باسْمِ اللَّه !

فانْدفَعَ الْمسلمونَ كالسَّيْلِ نحوَ حُصُونِ الْيهودِ ، وراحوا يفْتَحونَها حِصْنًا حِصْنًا ، وما كادَ الْيهودُ يرونَهمْ حتى امْتلأَتْ قلوبُهمْ بالرُّعْبِ ، فولَّوْا هاربينَ وهمْ يقولونَ :

ـ مُحمدٌ وأَصحابُه ، لا طاقَةَ لكُمُ الْيومَ بهمْ يا معْشَرَ الْيَهودِ .

ولما رأى رسولُ اللَّهِ ﷺ ذلكَ قالَ مُبْتَهِجًا بالنَّصْرِ :

ـ اللَّهُ أَكْبَر ، خَرِبتْ خيْبَر ، إنا إذا نزَلْنا بساحةِ قوْمٍ فساءَ

صباحُ الْمُنْذَرِينَ !

واسْتطاعَ الْمسلمونَ فى هذه الْغَزْوةِ أَنْ يفْتَحوا مُعْظَمَ

حُصُونِ الْيهودِ ، باسْتِثْناءِ حُصُونٍ قَليلَةٍ ، حيثُ رجعَ أَبو بكْرٍ الصديقُ وعمرُ بنُ الْخطَّابِ بعْدَ أَنِ اسْتَعْصَى عليهِمَا فتحُ هذه الْحُصُونِ ، وأَخْبَرا الرسولَ ﷺ بذلك ، فقالَ النبيُّ ﷺ :

ـ لأَدْفَعَنَّ لِوائى غداً إلى رجُلٍ يفتَحُ اللَّهُ على يدَيْهِ ، يُحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ .

وباتَ الْمسلمونَ ليلَتَهُمْ ، وكلٌّ واحدٍ يتمنَّى أَنْ يكونَ هو صَاحِبَ اللِّواءِ ، فلما كانَ الْغَدُ قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ أَيْنَ علىُّ بْنُ أَبى طالبٍ ؟

فقالوا له :

ـ هوَ يا رسولَ اللَّهِ يشْتَكى وَجَعًا أَصابَ عَيْنَيه .

فقالَ الرسولُ ﷺ :

ـ فأَرْسِلوا إليه .

فأَرْسَلوا إليه ، فجاءَ علىٌّ فى الْحالِ ، وهو لا يكادُ يُبْصِرُ أَمَامَهُ من شِدَّةِ ما بهِ منْ وجَعٍ ، فدعا له الرسولُ ﷺ

بالشِّفاءِ ، فشفَاهُ اللَّهُ تمامًا ، حتى كأَنْ لمْ يكُنْ بِهِ وَجَعٌ .

وأَعْطَى الرسولُ ﷺ الرايةَ لِعليِّ بنِ أَبى طالبٍ وأَمرهُ أَنْ يفتحَ هذهِ الْحُصونَ الْمَنيعةَ ، فأَخذَ عليٌّ اللِّواءَ وهو يقولُ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، لأُقَاتلَنَّهمْ حتى يُؤْمنوا باللَّهِ ورَسولِهِ .

فقالَ لهُ الرسولُ ﷺ :

ـ أَنْفِذْ على رِسْلِكَ حتى تنزِلَ بساحَتِهِمْ ، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ ، وأَخْبِرهمْ بما يَجِبُ عليهِمْ مِنْ حقِّ اللَّهِ فيهِ .

ثم قالَ لهُ :

ـ فواللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بكَ رَجُلاً واحِداً خيرٌ لكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ !

وانْطلقَ علىٌّ بْن أَبى طالبٍ إلى حصُوْنِ أَهْلِ خَيْبَرَ ، فقاتلَ قِتالَ الأَبْطالِ حتى كانَ الْفتحُ على يديْهِ ، وغَنِمَ الْمسلمونَ كلَّ ما فى تلْكَ الْحصُوْنِ منَ الأَمْوالِ ، ووقعَ عددٌ كبيرٌ منَ النِّساءِ سبَايَا لِلْمسلمينَ .

وكانَ منْ بينِ السَّبَايا «صَفِيَّةُ بنْتُ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ» زَعيمِ بنى النَّضيرِ ، والتى ينْتَهى نَسَبُها إلى هارونَ عليه السلام .

ونظرَ الْمسلمونَ إلى «صفيةَ» فرقُّوا لحالِها وقالوُا :

ـ لقدْ فُجِعَتْ هذه الْمسْكينَةُ بفَقْدِ أَهْلِها فى هذه الْغَزْوةِ ، كما أَنها وقعتْ أَسيرةً هى وابْنَةُ عَمِّها ، برَغْمِ أَنها بنتُ زعيمٍ كبيرٍ له مَكَانَتُهُ بيْنَ قوْمِه .

ثم قالوا لِبلالٍ :

ـ اذْهَبْ بهما إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، لكَى يَقرَّرَ بنفْسهِ ما يراهُ مُناسِبًا بشأْنِهما .

واصْطَحَبَ بِلالُ بنُ رباحٍ الْمرأَتيْنِ ، ومرَّ بهما عبْرَ الْوادى الذى شهِدَ هذهِ الْمَعْركةَ ، وكانتْ جُثَثُ الْقَتْلَى ما تزالُ

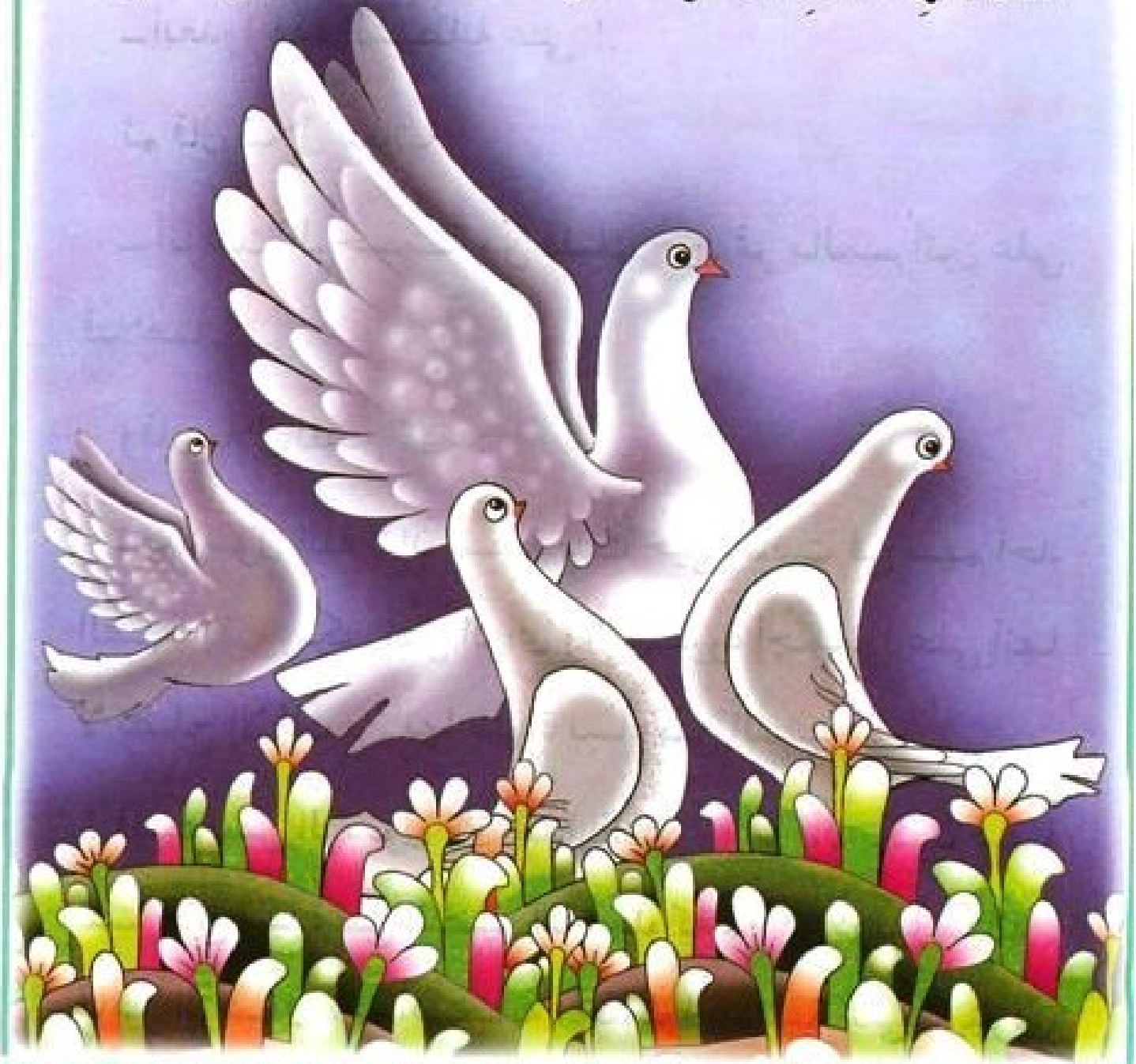

مُلْقاةً على قارِعَةِ الطَّريقِ ، ومَا إنْ رأَتْ «صفيةُ» هذا الْمَنْظرَ حتى فاضَتْ عيناها بالدَّمْعِ ، لكنها ظلَّتْ هادئَةً صامتةً ، أما ابْنةُ عَمِّها فقدْ راحتْ تَحْثُو التُّرابَ على رأْسِها وتصْرُخُ بأَعْلى صوْتِها ، ولمْ تتوقَّفْ عنِ الْبكاءِ والصُّراخِ ، حتى قالَ الرسولُ ﷺ فى غَضَبٍ :

ـ أَبْعِدوا هذه الشَّيْطانَةَ عنِّى !

ثم قالَ لِبلالٍ مُعاتبًا :

ـ أَنُزِعَتِ الرَّحْمةُ مِنْ قَلْبكَ حينَ تمرُّ بالْمرْأَتَينِ على قَتْلاهُما ؟

وقالَ بلالٌ للنبىِّ ﷺ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، إنَّ صفيَّةَ بنتَ حُيَىٍّ كانتْ فى سَهْمِ أَحدِ الصَّحابةِ ، ولكنَّ أَهْلَ الرأْىِ والْمشورةِ أَجْمعوا على أَنها لا تصْلُحُ إلا لكَ ، لأَنها سيِّدةُ نساءِ بَنى النَّضيرِ .

فاسْتَحْسنَ الرسولُ ﷺ هذا الرأْىَ ، وأَبى أَنْ تكونَ صفيةُ بنْتُ حُيَىٍّ سيدةُ بنى النضيرِ أَمَةً مَمْلوكةً لمنْ هو دُونَها مَكانةً ، فأَمرَ الرسولُ ﷺ أَصْحابَهُ فَحملوا صفيَّةَ على بَعيرِهِ ،

فعَلموا أنَّ الرسولَ ﷺ قد اصْطفاها لِنفْسِه وقالوا لبعضهم :

ـ لقد اصْطفَى رسولُ اللَّه ﷺ صفيَّةَ لنفْسه ، وبذلكَ فقدْ نجَّاها اللَّهُ منَ الْعبوديّة ، وعوَّضهَا عنْ فقدِ أَهْلِها خيراً .

وتطلعَتْ صفيَّةُ إلى الرسولِ ﷺ ، فرأَتْ نوراً يضيءُ مِنْ جَبينِه ، وهمَّتْ بأَن تتكلَّمَ لكنَّ حياءَها منعَها منْ ذلكَ .

وحاولَ الرسولُ ﷺ أنْ يخْرجَها من صَمْتِها ويُدْخلَ السرورَ إلى قلْبها فسألها قائلاً :

ـ هلْ لكِ فىَّ ؟

وفى تلْكَ اللَّحْظَةِ تذكرتْ صفيَّةُ الرؤْيا التى رأَتْها مُنذُ أَعْوامٍ وقالتْ لنفسِها :

ـ أَحقًّا سأكونُ زوْجةً لرسولِ اللَّه ﷺ ؟

ونظرتْ إلى الرسولِ ﷺ فى إكْبارٍ وقالتْ :

ـ قدْ كُنْتُ أَتمنَّى ذلك وأَنا فى الشِّرْكِ ، فكيْفَ إذا أَمْكَنَنى اللَّهُ منْهُ فى الإسْلامِ !

وخشِيَ الرسولُ ﷺ أنْ تكونَ صفيَّةُ قدْ وافقَتْ على الزواجِ مِنْهُ ، لأَنهُ لا سبيلَ أَمامَها سِوى ذلكَ ، فهى مَمْلوكَةٌ له إن شاءَ أَمْسكَها وإنْ شاءَ أَعْتقها لوجْهِ اللَّهِ ، فقالَ لها رسولُ اللَّه ﷺ :

ـ اخْتارى ، فإنِ اخْترْتِ الإسلامَ أَمسكتُكِ لنفسى ، وإنِ اخْترْتِ الْيهودَ فعسى أَنْ أَعْتقَكِ فتلْحقى بقوْمِك !

لكنَّ صفيَّةَ قالتْ فى يَقينٍ :

ـ يا رسولَ اللَّهِ ، لقدْ هَوِيتُ الإسلامَ ، وصدَّقتُ بكَ قبْلَ أَنْ تدْعُونى ، حيثُ صرتُ إلى رحْلِك وما لى فى الْيهودِ أَرَبٌ ، وما لى فيها والِدٌ ولا أَخٌ .

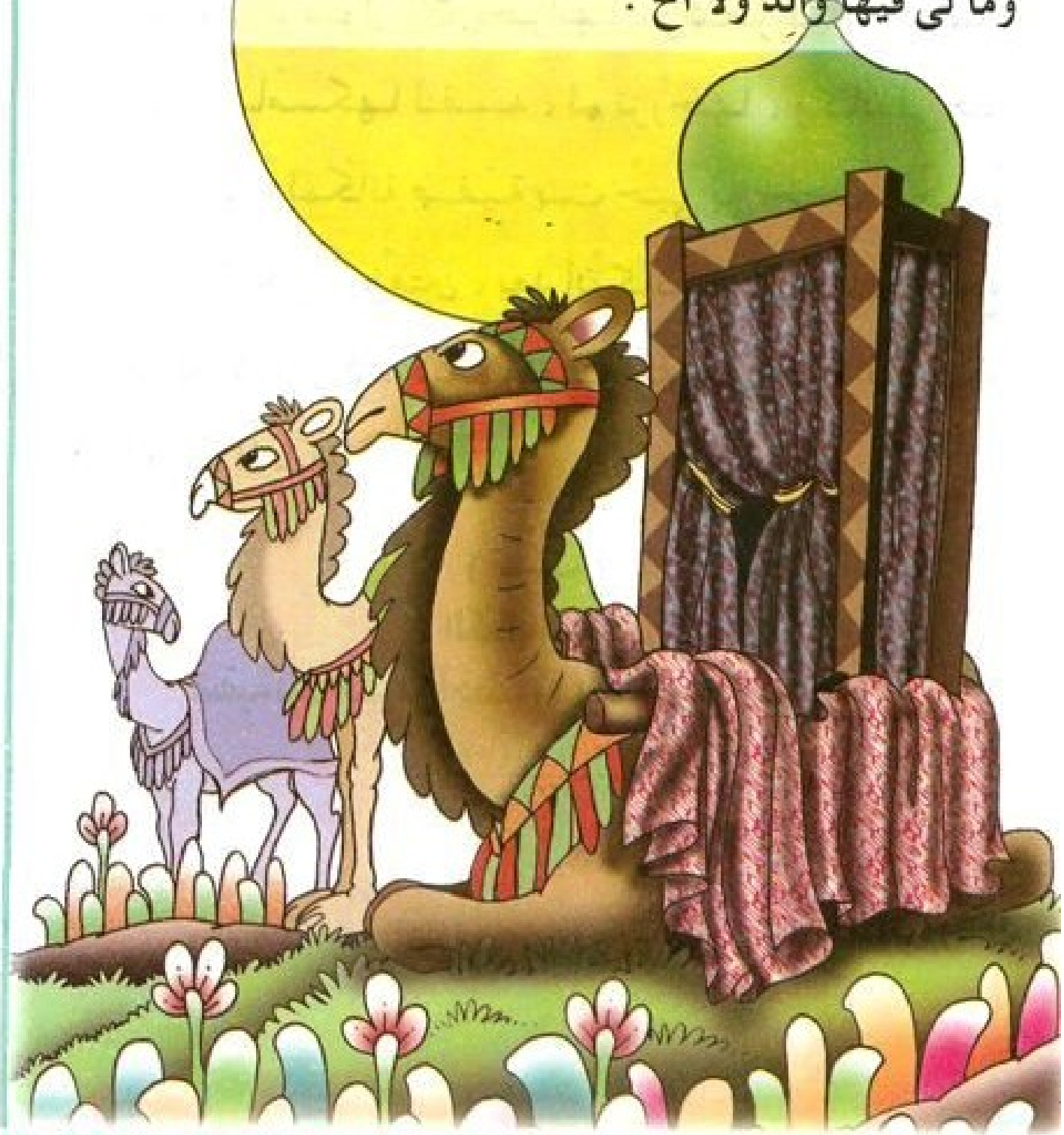

ثم أَضافَتْ قائلةً :

ـ وقدْ خيَّرتْنى بيْنَ الْكُفرِ والإيمانِ ، فاللَّهُ ورسولُه أَحبُّ إلىَّ منَ الْعتْقِ ، وأَن أَرْجعَ إلى قوْمى !

وأُعْجِبَ الرسولُ ﷺ بجَوابها ، وشعَر فيه بالصِّدْقِ والإيمانِ ، فأَمْسكَها لنفْسه ، ثمَّ تزوَّجها ، وكانَ فى هذا الزَّواجِ إعْلاءٌ لمكَانَة صفيَّة بنتِ حُيَىِّ بنِ أَخْطَبَ ، حيثُ صارتْ أُمًّا لكلِّ الْمؤْمنينَ ، بعدَ أَنْ كانتْ على وشْكِ الْوُقوعِ فى مَهانةِ الأَسْرِ والْعُبوديةِ ، ولَعبتْ صفيةُ فى حياةِ النبىِّ ﷺ دوراً مُهمًّا للغايةِ !

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

صفية بنت حيى بن أخطب (٢) حكمة زواج النبى ﷺ

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٢١١٦

الترقيم الدولى : ١ ـ ٧٣٧ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧

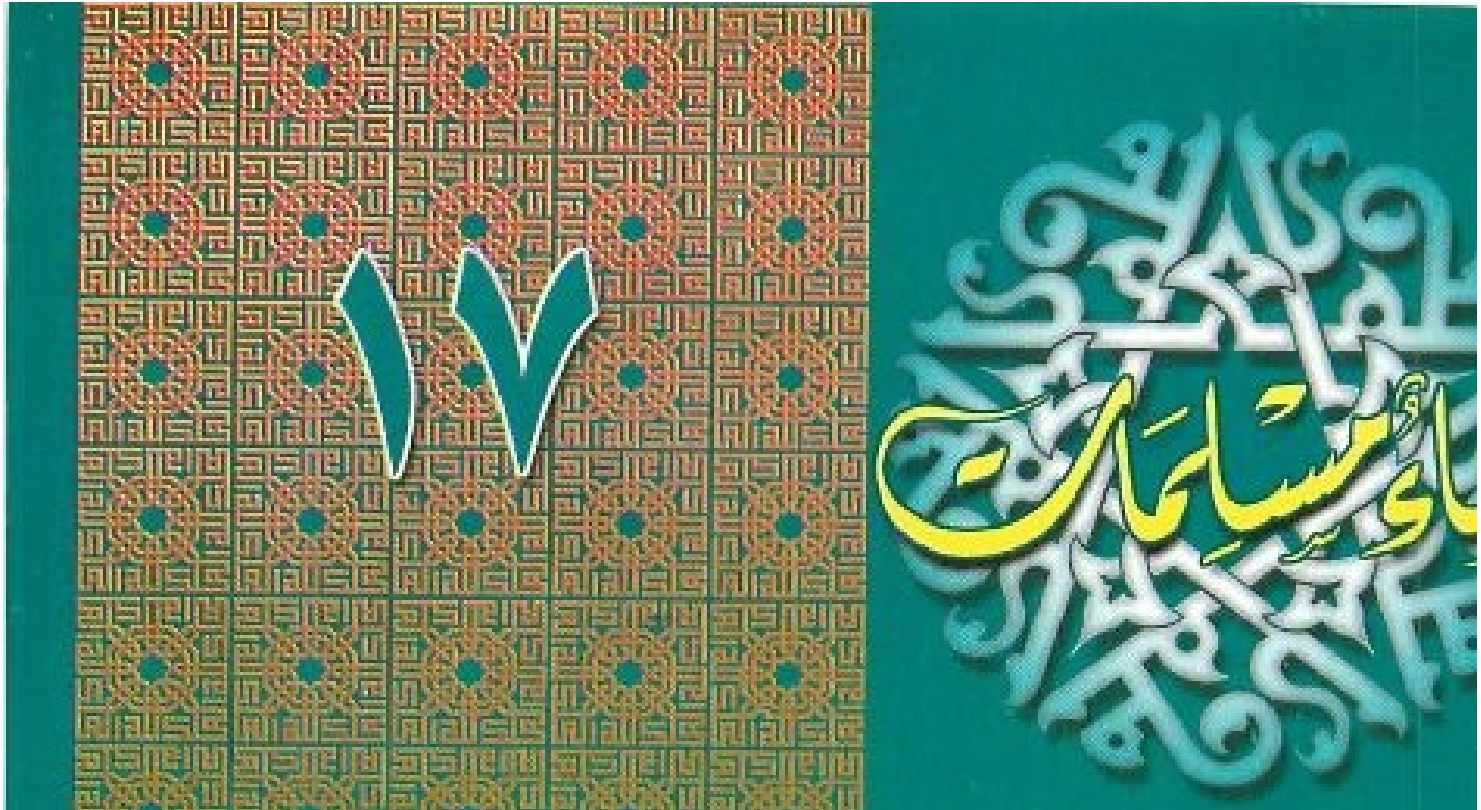

١٧

صفية بنت حيي بن أخطب

الجزء الثاني

حكمة زواج النبي صلى الله عليه وسلم منها

يقلم : د. وجيه يعقوب السيد

بريشة : أ. عبد الشافي سيد

إشراف : أ. حمدي مصطفى

تزوَّجَ الرسولُ ﷺ من صفيَّةَ بنت حُيىِّ بنِ أخْطبَ اليهوديَّةِ الأصْل ، بعْدَ أن أسْلمتْ وحسُنَ إسْلامُها ، وبرغْمِ سعادةِ المسلمينَ بهذا الزَّواجِ الإنْسانىِّ ، فقدْ أبْدوْا خوْفَهم على رسولِ اللَّه ﷺ منْها ، حيثُ خشُوا أنْ تُدبِّرَ له حيلةً تتخلَّصُ بها منهُ انْتقامًا لأهْلِها وقوْمِها .

ففى تلكَ اللَّيلةِ التى دخلَ فيها الرسولُ ﷺ بزوْجتِه صفيَّةَ ، ظلَّ « أبُو أيُّوبِ الأنصارِىُّ » بالْقُربِ منْ منزلِ الرسولِ ﷺ وهو يحملُ سيْفَه ، فلما أصْبحَ الرسولُ ﷺ سألهُ فى دهْشةٍ :

مالكَ يا أبا أيُّوبٍ ؟

فأجابَ :

ـ يا رسولَ اللَّهَ ، خفْتُ عليْكَ منْ هذه الْمرأة ، قدْ قتلْتَ أباها وزوْجَها وقوْمَها ، وكانتْ حديثةَ عهْدٍ بكُفْرٍ فخفْتُها عليكَ .

فدعَا الرسولُ ﷺ لأبى أيُّوبٍ وقالَ :

ـ اللَّهُم احْفظْ أبا أيُّوبٍ كما باتَ يحفظُنى !

ثم أمرَهُ بالانْصرافِ بعْدَ أنْ أشادَ بصدْقِ صفيَّةَ وحسْنِ إسلامِها .

وقدْ تأكَّدَ الرسولُ ﷺ بنفْسه من حبِّ صفيَّةَ بنتِ حُيَىٍّ لهُ وخوْفِها عليهِ منَ الْيهودِ فى تلكَ اللَّيْلَةِ التى تزوَّجها فيها .

ففى أثناءِ عوْدَتِها معَ الرسولِ ﷺ أرادَ أنْ يُقيمَ ليْلَةَ الْعُرسِ فى مكانٍ قريبٍ منْ ديارِها فأبَتْ صفيَّةُ ذلك ،

حتى إنَّ الرسولَ ﷺ أغْضَبَهُ ذلكَ ، فلما اقْتَربا من الْمدينةِ ووصلَ النبىُّ ﷺ إلى دارِه ، تزيَّنَتْ صفيةُ على أَحْسنِ ما يكونُ ، وأقامَ لها الرسولُ ﷺ ليلَةَ عُرْسٍ تليقُ بها .

وخطرَ للرسولِ ﷺ أنْ يسْألها عنْ سببِ رفْضِها النُّزولَ فى الدارِ التى أَعدَّها أولاً فقالَ لها :

ـ ما حَمَلَكِ على الامْتناعِ منَ النُّزولِ أولاً ؟

فقالتْ صفيةُ :

ـ خشيتُ عليْكَ منْ قُرْبِ الْيهودِ .

فزادَ ذلكَ منْ حُبِّها فى قلْبِ النبىِّ ﷺ وتأكَّدَ منْ حُسْنِ إسْلامِها واتِّباعها له .

ولما سألَ النبىُّ ﷺ زوْجتَه عائشةَ عنْ رأْيها فى صفيَّةَ وقالَ لها :

ـ كيْفَ رأيتِ يا عائشةُ ؟

فقالتْ عائشةُ :

ـ رأيْتُ يهوديَّةً !

فقالَ لها رسول اللّه ﷺ :

ـ لا تقُولى ذلك ، فإنها أَسْلَمَتْ وحسُنَ إسلامُها .

وليس بعدَ شهادةِ رسولِ اللّه ﷺ شهادةٌ ، فهو لا ينْطِقُ عنِ الْهَوَى ، إنْ هُوَ إلاَّ وحْىٌ يُوحَى .

ولِذلكَ فقدْ كان الرسول ﷺ يتألَّمُ كثيراً إذا أَغْضَبَتْ إحدَى نسائِه صفيَّةَ بنْتَ حُيَىٍّ وذكرَتْها بأَصْلِها الْيَهودِىِّ .

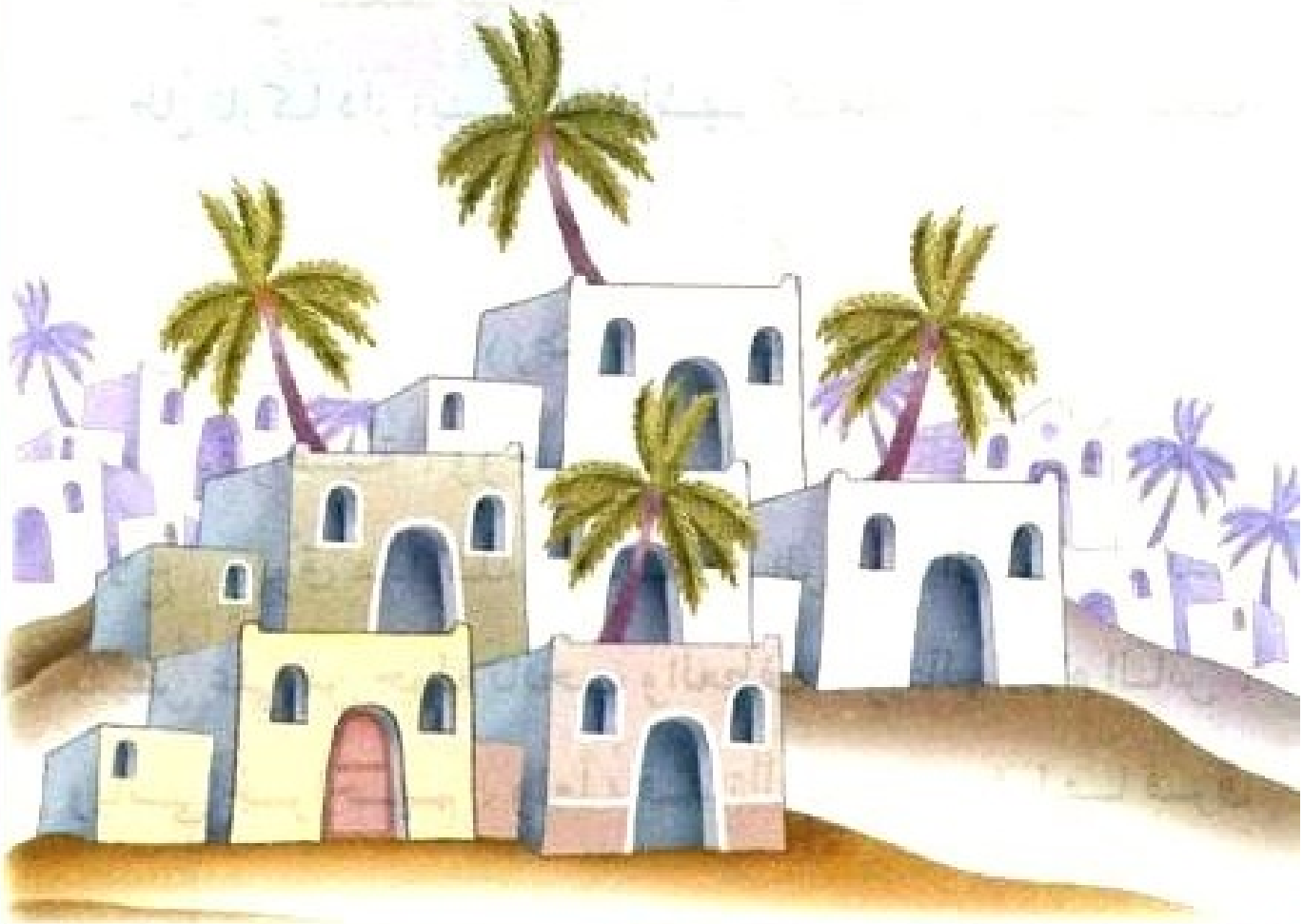

ففى إحدى الْغزوات ، اصْطحَبَ الرسولُ ﷺ صفيَّةَ بنتَ حُيَىٍّ وزينبَ بنتَ جحْشٍ ، وفى الطريقِ اعْتلَّ بعيرُ صفيَّةَ ، وكانَ مع زينبَ بنتِ جحشٍ بعيران ، فقالَ لها النبىُّ ﷺ :

ـ إنَّ بعيراً لصفيَّةَ اعتلَّ ، فلوْ أعْطيْتِها بعيراً ؟!

فقالتْ زينبُ :

ـ أنا أُعطى تلكَ اليهوديَّةَ !

وغضبَ الرسولُ ﷺ حينَ سمعَ هذه الْكلمةَ منْ زيْنبَ ، ونهاها عنِ التَّلفُّظِ بها مرةً أُخرى ، ولمْ يكتفِ ﷺ بذلكَ بلْ ظلَّ تاركًا دارَ زيْنبَ ثلاثةَ أشْهُرٍ كاملةً لا يأْتيها بسببِ ما قالَتْهُ فى حقِّ صفيةَ (رضى اللَّهُ عنها) .

وعاشَتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) فى بيْتِ النبى ﷺ سعيدةً راضيةً ، ووجَدتْ فى الرسولِ ﷺ الزوْجَ والأَبَ والأَخَ ، وفوْقَ هذا كلِّه وجدتْ فيه الرسولَ الإنْسانَ ، الذى يفيضُ على منْ حوْلَهُ بالْحُبِّ والْعطفِ ، ويتألمُ لآلامِ النَّاسِ ، ويأسَى لجراحِهمْ ، ولعلَّهُ قدْ تألَّم لما حدثَ لها فرقَ

لها قلبُهُ الكبيرُ وأغْدَقَ عليها من حُبه وعطْفه .

وسعدَ الرسولُ ﷺ بصفيَّةَ ، فقدْ كانتِ امْرأةً صالحةً شديدةَ الذكاءِ والْفطْنَةِ ، يدلُّ كلامُها على براعَتِها وذكائِها الشديدِ .

ففى أوَّلِ يوْمٍ رآها فيه الرسول ﷺ قالَ لها :

ـ لَمْ يزلْ أبوكِ منْ أشدِّ الناسِ عداوةً لى حتى قتلْتُه .

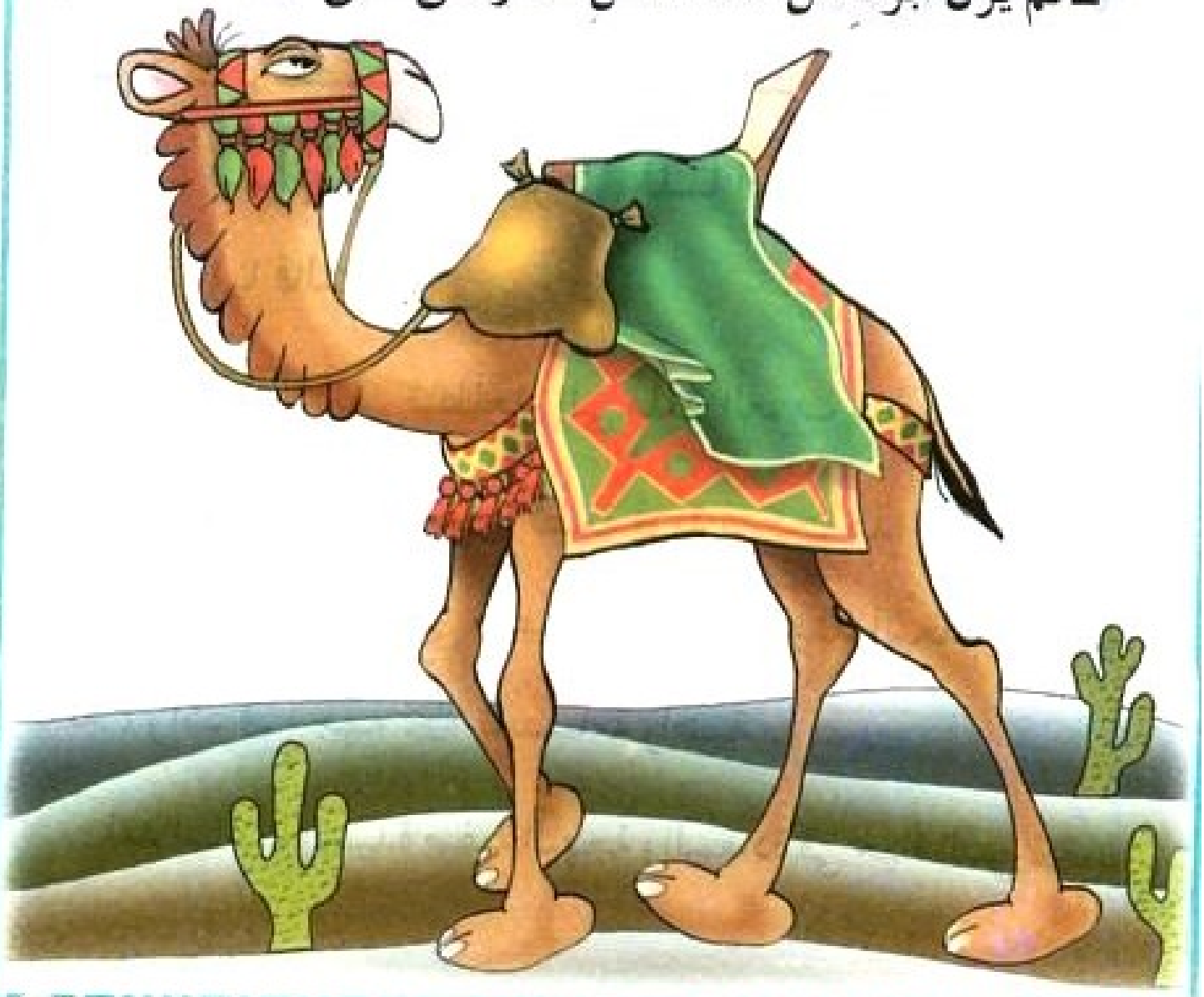

فقالتْ :

ـ يا رسول اللَّه ، إنَّ اللَّهَ يقولُ فى كتابِه الْعزيزِ :

﴿ ولاَ تزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [سورة الإسراء : ١٥]

فلمَّا خيَّرها الرسولُ ﷺ بيْنَ الْعتقِ أوِ الْبقاءِ معه قالتْ :

ـ بلْ أختارُ اللَّهَ ورسولَهُ .

ولاحظَ الرسولُ ﷺ أثَر لطْمَةٍ قديمةٍ على وجْهِها فسألها عنْ ذلكَ ، فقصَّتْ عليه صفيَّةُ الرؤْيا التى رأَتْها مُنْذُ أعْوامٍ ، إذْ رأَتْ قمرًا وقعَ فى حِجْرِها ، فلما أصْبحَتْ وقصَّتْ على أُمِّها الرؤْيا قالتْ لها :

ـ ما هذا إلا أنكِ تتطلَّعين إلى مَلكِ الْعربِ مُحمدٍ .

ثم لطَمتْها على وجْهِها لطمةً قويةً تركتْ هذا الأثَر عليه ، ونظرَ الرسولُ ﷺ إلى صفيَّةَ فى شفقةٍ ، وقدْ أسْعدَهُ ما قالتْهُ له ، وأشْرقَ وجهُهُ ﷺ بابْتسامةٍ راضيةٍ .

لقدْ أشاعَتِ السيدةُ صفيةُ الْبهْجةَ والسَّعادةَ فى حياةِ النبىِّ ﷺ ،

فقدْ كانتْ بارعةً فى الْحديثِ ، شديدةَ الذَّكاءِ والفطْنَةِ ، كما كانتْ جميلةَ الخَلْقِ والخُلُقِ .

قالت عنها ماشِطَتُها :

ـ ما رأَيْتُ بينَ النِّساءِ أَجْملَ منها .

وحاولتْ صفيةُ أَنْ تكَفِّرَ عنْ ذنوبِها السابِقَةِ ، فراحتْ تتقَرَّبُ إلى اللَّهِ بالطَّاعاتِ والأعمالِ الصَّالحةِ ،

وكانَ ماضيها وماضى أُسْرتها وأَهْلها فى مُحاربةِ الإسلامِ أَمْرًا يُقْلقُها للْغايةِ ، وكمْ تمنَّتْ أَنْ يُمْحَى عنها هذا التاريخُ وهذا النَّسبُ الذى لا يُشَرِّفُها ، حتى لا يجدَ أَحدٌ فى ذلكَ فُرْصةً للطَّعْنِ فى دِينها وإِسْلامها .

لكنَّ الرسولَ ﷺ ، كانَ يخفِّفُ عَنْها هذا الشُّعورَ ، فهى وإِنْ كانتْ تَنْتَمى إلى الْيهودِ ، فقدْ كانَ جدُّها هارونُ عليه السلام يهوديًّا ، كما كانَ عمُّها موسى عليه السلام نبيًّا عظيمًا ، فلماذا لا تنْتَسبُ إلى هؤُلاءِ الأَنبياءِ الْعُظَماءِ بدلاً منْ حفْنةٍ من الأَشْرارِ ؟

جلستْ صفيةُ مع عائشةَ وحفْصةَ ذاتَ يومٍ ، فقالا لها كلامًا أَغْضبها ، حيثُ ذكرَا لها أَصْلَها اليهُودىَّ ، ولما دخلَ عليها الرسولُ ﷺ رآها تبْكى فسألها عنْ سببِ بُكائِها فقالتْ :

ـ ذكرتْ عائشةُ وحفصةُ أَنهمَا خيرٌ منِّى لأَنى كنتُ امْرأَةً يهوديَّةً !

وأضافتْ صفيةُ قائلةً وهى تمسحُ دمُوعَها :

ـ لقدْ قالتا لى : نحنُ أكرمُ علَى رسولِ اللَّهِ ﷺ منْك ، فنحنُ أزْواجه وبناتُ عمِّه .

فمسحَ الرسولُ ﷺ دمُوعَها بردائه وقالَ لها :

ـ ألا قلتِ لهما : وكيْفَ تكونانِ خيْراً منىَّ ؟ وزوْجى محمدٌ ، وأبى هارُونُ ، وعَمِّى موسَى .

وأَرْضى هذا الْكلامُ صفيةَ (رضى اللَّه عنها) ، ونزلَ على قلْبِها بردًا وسلامًا ، فحمدتْ ربَّها على ذلك ، وظلَّ لسانُها يردِّدُ كلَّ حينٍ فى افْتخارٍ :

- زوْجى محمدٌ ، وأَبى هارونُ ، وعمِّى موسى !

ومُنْذُ أَنْ عرفتْ صفيةُ الإِسلامَ وذاقَ قلْبُها حلاوةَ الإِيمان ، وهى تُخْلِصُ للرسول ﷺ وتحبُّهُ حبًّا شديدًا ، فقدْ كان ﷺ بأَخْلاقه الرائعة سببًا فى إِسْلامِها .

وفى مرضِ الرسول ﷺ الأَخيرِ الذى ماتَ فيه ، عبَّرتْ صفيةُ عنْ شعُورِها الصَّادقِ تجاهَ زوْجها ورسولِها ﷺ ، فقدْ دخلتْ على الرسولِ ﷺ وهو جالسٌ بيْن بعضِ نسائه ، فرأَتِ الأَلمَ يشْتدُّ عليه ، فبكتْ بكاءً حارًّا ، وقالتْ :

- إِنِّى واللَّه يا نبىَّ اللَّه ، لوَددْتُ أَنَّ الذى بكَ كانَ بى .

فنظرتْ نساءُ النبىِّ ﷺ إِلى بعضهنَّ ، كأَنهنَّ غيرُ مصدِّقاتٍ ما تقولهُ صفيةُ ، فغضبَ الرسول ﷺ منْ تغامُزِهنَّ بها وقالَ لهنَّ :

ـ واللَّه ، إنها لصادقةٌ .

وبعْدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ ، وفى خِلافةِ عُمرَ بنِ الخطابِ ، أَرادتْ جاريةٌ لصفيَّةَ (رضى اللَّه عنها) أَنْ توقِعَ بيْنَها وبينَ أَميرِ الْمؤْمنينَ فذهبتْ إليه وقالتْ له :

ـ إن صفيَّةَ تحبُّ السَّبْتَ ، وهو يومُ احْتفالِ الْيهودِ ، وتتصدَّقُ على الْيهودِ وتصلُهمْ بأَمْوالِها .

وبعثَ عمرُ بنُ الْخطابِ إلى صفيةَ (رضى اللَّهُ عنها) وسألها عنْ ذلكَ فقالتْ :

ـ أَمَّا السبْتُ ، فإنى لم أَحبَّهُ منْذُ أَبْدلَنى اللَّهُ به الْجُمعةَ ، أما الْيهودُ فإنَّ لى فيهمْ رَحِمًا ، فأنا أَصِلُها .

وسألتْ صفيةُ (رضى اللَّهُ عنها) جارِيَتَها التى كانتْ تُحسِنُ إليها :

ـ ما حَمَلكِ على هذا ؟

فقالتِ الْجاريةُ وهى تُظْهِرُ ندَمَها :

ـ الشيْطانُ .

فقالتْ لها صفيةُ :

ـ اذْهبى ، فأَنْتِ حُرَّةٌ .

ـ لقدْ كانتِ السيدةُ صفيةُ بنتُ حُيىِّ بنِ أَخطبَ يهوديَّةً ذاتَ يوْمٍ ، وكانَ أَهْلُها جميعًا يُضْمرونَ الْعداءَ والْكراهيةَ للرسولِ ﷺ ، لكنَّ اللَّهَ (تعالى) شاءَ لها الْهِدايةَ ،

وأَنْعمَ عليها بأَنْ صارتْ زوْجَةً للرسولِ ﷺ ، وكانَ هذا الزَّواجُ نبيلاً بمعنَى الْكلمةِ ، وكانَ توْقيتُهُ مُوفَّقًا للْغايةِ ، حيثُ أَخرجَ صفيةَ (رضى اللَّه عنها) منَ الظلُماتِ والْيأْسِ والْكُفرِ إلى رحَابةِ الإيمانِ وسُمُوِّ تعالِيمهِ .

ونالتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) رضَا الرسولِ ﷺ ، فشهدَ لها بحُسْنِ الإسلامِ والصِّدْقِ ، ولذلك فقدْ روَى عنها كثيرٌ منَ الْعُلماءِ ، حيثُ روَى عنْها ابْنُ أَخيها كنَانَةُ ، ومُوَلاهَا يزيدُ بنُ معتبٍ ، وزيْنُ الْعابدينَ علىُّ بنُ الْحسيْنِ ، وإسحاقُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الْحارثِ بنِ مُسْلِم بنِ صَفْوانَ .

وفى العامِ الثانى والْخمسينَ للْهِجْرةِ ، وفى خِلافَةِ معاويَةَ بنِ أَبى سُفْيانَ ، تُوُفِّيتْ صفيةُ (رضىَ اللَّهُ عنها) ، رحِمها اللَّهُ رحْمةً واسعَةً ، ونفعَ أُمَّهاتِنا ونَسَاءَنَا وبناتِنا بسيرَتِها الْعَطِرَةِ .

(تَمَّتْ)

الكتاب القادم

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان (١) الاختيار الصعب

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٧٣٢٤

الترقيم الدولى : ٢ ـ ٧٥٩ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧